٦٥ المرور باللغو مرور الكرام

مما ذكره رسول الله في حديثه النبوي :

((إذا سألتم اللهَ فاسألوه الفردوسَ ، فإنه أعلى الجنة وأوسطُ الجنة))[١]

ومـــا يستحق هذه الدرجة في الجنة إلا الذين تخلقوا بخلق ترك اللغو ، والمرور عليه مرور الكرام .

يقـــول الحق سبحانه واصفاً عباده بصفة تَنُمُّ عن مدى حكمتهم وعلمهم بعـــواقب الأشياء ، مما يجعلهم لا يدخلون فى جدال أو مراء أو مخاصمة ، فيقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان]

واللغـــو هو الكلام الذى يجب في عُرْف العاقل أنْ يُلغى ويُترك ، فهو الهراء الذي لا فائدة منه ، فلا ينفعك إنْ سمعته ، ولا يضرك عدم سماعه ، ويُطلق أيضاً على كل فعل لا جدوى منه .

لـــذلك جعـــل الحق سبحانه المَارِّينَ على اللغو مرورَ الكرام أصحاب نفـــوس سَوِيَّة مُتعالين على سفاسف الأمور ، مُترفِّعين عن سفاهات الناس ، وهم لا يمرون أيَّ مرور ، بل (مَرُّواْ كِرَامًا) .

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٣ / ٧٤) .

والكـــرام يقابلها اللئام ، فكأن المعنى : أنهم لا يدخلون مع اللئام مجال اللغو والكلام الباطل الذي يصادم الحق ليصرف الناس عنه ، فلا ينشغلون به ولا يأبهون له .

بل إن الحق سبحانه قضى وحكم بفلاح المؤمنين ، وجعل منهم هؤلاء الـــذين يتعرضون عن الكلام الذى لا فائدةَ منه ، فيعرضون عن اللغو ، فقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾ [المؤمنون]

ثم قال عنهم : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ [المؤمنون]

والإعراض في الأصل تجنُّب الشيء ، وهو صورة لحركة إباء النفس لشيء ما ، وأهل المعرفة يضعون للغو مقياساً ، فيقولون : كل عمل لا تنال عليه ثواباً من الله فهو لغو .

لـــذلك احـــرص دائمـــاً أن تكون حركتك كلها لله حتى تُثاب عليها ، كـــصاحبنا الـــذي دخل عليه رجل وقصده في قضاء أمر من الأمور وهو لا يملك هذا الأمر ، لكن أراد أن يستغل فرصة الخير هذه ، وأن يكون له ثواب حتى في حركة الامتناع عنه .

فرفع يده : اللهم إنه عبد قصد عبداً وأنا آخذ بيده وأقصد رباً ، فاجعل تـــصويب خطـــئه في قصدي تصويباً لقصدك . يعني : أنا وإنْ كنتُ لا أقدر على قضائها إلا أنني أدخل بها على الله من هذه الناحية .

وقد قال الحق سبحانه فى سورة القصص :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص]

وسبب نزول هذه الآية أنه لما استقبل رسول الله ﷺ رسلَ النجاشى وكانوا جماعة من القساوسة ، فلما جلسوا أسمعهم سورة يس ، فتأثروا بها حتى بَكوْا جميعاً ، ثم آمنوا برسول الله ، ولمَّا انصرفوا تعرَّض لهم أبو جهل ونهرهم . وقال : خيَّبكم اللهُ من رَكْب ــ وهم الجماعة يأتون فى مهمة ــ أرسلكم من خلفى . يعنى : النجاشى لتعلموا له أخبارَ الرجل ، فسمعتموه فبكيتُم وأسلمتم ، والله ما رأينا رَكباً أحمقَ منكم ، فما كان منهم إلا أن أعرضوا عنه [1] .

فهؤلاء مرُّوا باللغو مرورَ الكرام وأعرضوا عنه فلم يلتفتوا إليه ، وزادوا على ذلك أنهم لم يسكتوا على اللغو ، إنما قالوا : ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص]

أى : لنا أعمالنا الخيِّرة التى يجب أن نقبل عليها ، ولكم أعمالكم الباطلة التى ينبغى أن تترك ، فكلٌّ منا له شأنٌ يشغله .

(سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ) والسلام إما سلامُ تحية كما هو شائعٌ بيننا ، وإما سلامٌ

(١) قاله سعيد بن جبير فيما أورده عنه ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٣٩٣) وقال عروة بن الزبير فيما نقله القرطبى فى تفسيره (٧ / ٥١٨٣) وعزا ابن كثير القصة لمحمد بن إسحاق فى السيرة .

للمتاركة كما لو دخلتَ مع صاحبك فى جدل ، فلما رأيت أنه سيطول وربما تعـدَّيت عليه فتقول له تاركاً ، سلام عليكم . تعنى : إننى ليس لدىَّ ما أقوله لمفارقتك إلا هذه الكلمة .

ومن ذلك ما دار بين الخليل إبراهيم عليه السلام وبين عمه ، فبعد أن ناقـشه فى أمر عبادته آلهةً من دون الله ، قائلاً له : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ۝٤٥ ﴾ [مريم]

فهـذه المحـاورة التى احتوتْ أربعةَ نداءات حانية ، وجاءت نموذجاً فـريداً للدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة فراعتْ مشاعر الأب الذى يدعـو ولده ويقدم له النُصح ورتبتْ الأمورَ ترتيباً طبيعياً ، وسلسلتها تسلسلاً لطيفاً لا يثير حفيظة السامع ولا يصدمه .

وقد راعى الحق تبارك وتعالى جوانبَ النفس البشرية ، فأمر أن تكون الدعـوةُ إلـيه بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى لا تجمع على المدعوّ قسوة الدعوة ، وقسوة أن يترك ما ألف ويخرج منه إلى ما لم يألف .

فأنت حين تدعو شخصاً إلى الله ، فإنما تُخرجه عن الفساد الذى ألفه ، وهو لم يألف الفساد إلا بعد أن اشتهاه أولاً ، ثم اعتاده بالفعل والممارسة ثانياً

وهاتان مصيبتان آخذتان بزمامه ، فما أحوجه لأسلوب ليِّن يستميل مشاعره ويعطفه نحوك فيستجيب لك .

ومـــا أشبه الداعية فى هذا الموقف بالذى يحتال ليخلِّص الثوبَ الحرير مـــن الأشواك ، أما إنْ نهرته وقسوتَ عليه فسوف يُعرض عنك وينصرف عن دعوتك ، ويظل على ما هو عليه من الفساد .

لـــذلك قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل]

ويقولـــون : النصح ثقيلٌ فلا تُرسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً ، وقالوا : الحقائق مُرّة فاستعيروا لها خفةَ البيان .

ورغـــم نداءات إبراهيم عليه السلام الحانية لأبيه ، إلا أن ردَّ أبيه كان صـــــادماً : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ [مريم]

تهديد ووعيد وطَرد لإبراهيم ، فماذا قال نبىُّ الله إبراهيم لعمِّه بعد هذه القسوة ؟ لم يخرج إبراهيمُ عن سَمْته العادل ، ولم يتعدَّ أدب الحوار والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم]

أى : سلامٌ أقابل به ما بدر منك ، فأمرى معك سلام ، فلن أقابلك بمثل

ما قلت ، ولن أغلظ لك ، ولن ينالك مني أذىً ، ولن أقول لك : أف .

لكـــن السلام منى أنا لا يكفى ، فلا بدَّ أن يكون لك سلامٌ أيضاً من الله تعالـــى لأنـــك وقعتَ فى أمر خطير لا يُغفر ويستوجب العذاب ، وأخشى ألاَّ يكون لك سلامٌ من الله .

ظـــلَّ إبراهيم عليه السلام يستغفر لعمه كما وعده ، إلى أن تبينَ له أنه عـــدو لله فانـــصرف عـــند ذلك وتبرأ منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة]

فمـــا كان من إبراهيم إلا أنه أعرض عن الحديث معه بعدما بذل معه كـــل ما يمكن ، وبعد أنْ تبين أن دعوته لن تُجدى نفعاً ، لأن أباه أُشرب قلبه حبَّ آلهته التى يصنعها بيديه ، فقال إبراهيم : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم]

ويعطينا الحقُّ سبحانه صورة أخرى للإعراض عن اللغو والاستهزاء بآيات الله ، فيقول تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء]

يأمر الحق المؤمنين أنهم إذا سمعوا بعضاً من الكافرين يهزأ بآيات الله أو يكفر بها فلا يقعدوا معهم ، إلا أنْ يتحولوا إلى حديث آخر ، وذلك حتى لا

يكونـــوا مـــثل الكافرين لأنه سبحانه سيجمع المنافقين والكافرين فى جهنم ، وبذلك يحمى اللهُ وحدة أهل الإيمان ويصونهم من أىِّ تهجُّم عليهم .

فالـــذين يَغـــارون علـــى الإيمان هم الذين آمنوا ، فما دُمتَ قد آمنتَ وارتـــضيتَ لنفسك الإسلام فإياك أن تهادن من يتهجم على الدين ، لأنك إنْ هادنته كان أعزَّ فى نفسك من الإيمان .

ومـــا دُمْتَ أيها المؤمن قد ارتضيتَ الإيمان طريقاً لك وعقيدة ، فلتحم هذا الإيمان من أن يتهجَّم عليه أحدٌ ، فإن اجترأ أحدٌ على الإيمان بشيء من الـــنقد أو السخرية أو الرمى بالباطل ، فالغيرة الإيمانية للمسلم تُحتِّم عليه أن يرفضَ هذا المجلس .

وكـــان المؤمنون فى البداية قلة مستضعفة لا تستطيع الوقوف فى وجه الكافـــرين أو المنافقين ، فساعةَ يترك المؤمنون الكافرين أو المنافقين لحظة اللغـــو فـــى آيات الله ، فسيعلم الكافرون والمنافقون بذلك السلوك أن عرْضَ الإيمان أعزُّ على المسلمين من مجالسة هؤلاء .

أما إذا جالسهم مسلمٌ وهم يخوضون فى الإيمان ، فهذا يعنى أنهم أعزُّ مـــن الإيمـــان ، والكافرون قد يجعلونها حديثاً مستمراً لزعزعة الإيمان فى قلـــوب المسلمين ، أما حين يرى الكافرُ مؤمناً يهبُّ وينفر من أىِّ حديث فيه سخرية من الإسلام ، هنا يعرف الكافرُ أن إيمانَ المسلم عزيزٌ عليه .

فـــإن رأيتَ أيها المسلم فعلاً يُشجِّع منهجَ الفساد فى الأرض فاعلم أن ذلك خوضٌ فى دين الله بالباطل ، وقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ .. ﴾ [النساء] هو إيذانٌ بالمقاطعة ، فلو أن إنساناً بهذا الشكل يذهب إلى

البقال ليشترىَ منه شيئاً ليأكله فيرفض البيع له ، وكذلك الجزار ، وكذلك أىَ إنسان في يده مصلحة لمثل هذا الخارج عن المنهج .

وبـــذلك تكون المقاطعةُ حتى يتأدبَ ويعلم كلُّ إنسان أن المجتمعَ غيورٌ على دينه الذى آمن به ، وأن الله أعزُّ من كل تكريم يرونه فى مجتمعهم .

ومـــا استشرى الباطل وتبجَّح أهلُ الفساد وأهلُ المنكر ، إلا لأن الناس يحترمونهم ويعاملونهم على هذه الحال ، بل ربما زاد احترام الناس لهم خوفاً من باطلهم ومن ظلمهم .

ومـــا خُلُـــق الإعراض عن اللغو والباطل والمرور عليه مرورَ الكرام الـــذى يتـــصف به عباد الله إلا لأنهم قد تحققوا بمعنى قول الحق سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [الرعد]

فالباطل قد يطفو ويعلو إلا أنه لا يدوم بل ينتهى ، والمثل العامى يقول: ((يفـــور ويغور)) ، ألم تَرَ إلى القدْر بها لحمٌ تفور ؟ إننا نجد الرِّيم قد طفا علـــى الـــسطح ، فإذا ما جاءتْ حرارةُ النار أخرجتْه على السطح ، فإما أنْ يُخرجه الإنسانُ خارج القدر ، وإما أنْ يتركه فيتجمد على الجوانب وينتهى .

ومهمـــا اخـــتلطتْ بالحـــق شياء فهو كحق يبعد ويطرد هذه الفقاقيع والخـــبث ويُنحيها عنه فإنْ عَلا الباطلُ يوماً على الحق فلنعلم أنه علوُّ الزَّبَد الذى يذهب جُفاء مَرْمياً به ومطروحاً وسيظل الحقُّ هو الحق .

فالحق يبقى صافياً ثابتاً ، أما الباطل فيعلو ليتجمَّع على الجوانب ليذهبَ

بغير فائدة ، فالباطلُ إنما يطفو على السطح ، لكنه لا يفيد ولا يزعزع الحق الذى يستقر وينفع الأرض والناس .

وقد كان كفارُ قريش يحاولون التشويشَ على الحق الذى أنزله الله سبحانه على رسوله محمد ﷺ ، يريدون صرفَ الناس عن الاستماع للقرآن ، فكانوا يقولون : ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

يعنى : شوِّشوا عليه حتى لا يتمكن الناسُ من سماعه ، وهذه شهادةٌ منهم بأنهم لو تركوا آذان الناس على طبيعتها وسجيتها فسمعتْ القران فلا بد أنْ ينفعلوا به وأنْ يؤمنوا به ، ولو لم يكُنْ للقرآن أثر فى النفوس ما قالوا هذه المقولة .

فالقرآنُ يخاطب ملكات خفية فى النفس لا نعرفها نحن ، ولكن يعرفها الله سبحانه خالق الإنسان وهو أعلمُ به ، هذه الملكات تنفعل حين تسمع القرآن فتلين القلوب ويدخل الإيمانُ إليها .

لذلك كان أئمةُ الكفر يخافون أكثرَ ما يخافون من سماع الكفار للقرآن ، ويحاولون منعَ ذلك بأىِّ وسيلة ، ويعتدون على مَنْ يتلو القرآن ، ولو أن هذا القرآن لم يكُنْ كلامَ الله الذى وضع فيه من الأسرار ما يخاطب ملكات خفية فى النفس البشرية ما اهتمَّ أئمةُ الكفر أن يستمع أحدٌ للقرآن أو لا يستمع ، ولكن شعورهم بما يفعله كلامُ الله جعلهم لا يمنعون سماعَ القرآن فقط ، بل قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ

﴿ [فصلت] ، فلم يكونوا يمنعونهم من سماع القرآن فقط ، بل يطلبون من أنصارهم أنْ يلغوا فيه أى يُشوشرون عليه ، أى : اصنعوا ضجة تَحُول بين السامع للقرآن وتدبّره ، ولا تعطوا للناس فرصةً لسماعه ، حتى لا ينفذ إلى قلوبهم .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان]

فهؤلاء الذين يحاربون الحق ويقفون فى وجه الدعوة إلى الإيمان مستفيدون من الباطل والضلال ، ويسوؤهم أنْ يأتمَّ الناسُ بأهل الحقِّ والخير لذلك يبذلون قصارى جهدهم فى نَشْر الضلال حتى أنهم يشترونه ، فيبذلون ما لهم لشغل الناس وصرفهم عن الحق باللهو واللعب واللغو .

فاللهو هو الشيء الذى لا مصلحةَ فيه ويشغلك عن مطلوب منك ، لكن ما اللهو الذى اشتروْه ليصرفوا الناسَ به عن الحق وعن دعوة الإسلام ؟ إنهم لمَّا سمعوا القرآنَ سمعوا فيه قصصاً عن عاد وثمود وعن مَدْين وفرعون .. الخ ، فأرادوا أنْ يشغلوا الناسَ بمثل هذه القصص .

وقد ذهب واحدٌ منهم وهو النضر بن الحارث إلى بلاد فارس وجاءهم من هناك بقصص مسلية عن رستم وعن الأكاسرة وعن ملوك حمير ، اشتراها وجاء بها ، وجعل له مجساً يجتمع الناسُ فيه ليقصَّها عليهم ، ويصرفهم بسماعها عن سماع منطق الحق فى رسول الله .

وآخر يقول : بل جاء أحدُهم بمغنية تُغنِّيهم أغانى ماجنة مُتكسِّرة .

فالغناءُ أحد وسائلهم ، وهو من التصرفات التى تُعدُّ لهواً وإنْ لم يشغلك عـــن شـــيء ، وللعلمـــاء فيه كلامٌ كثير ، خاصة بعد أنْ صاحبته الموسيقى وآلاتُ الطرب والحركات الخليعة الماجنة .

فقـــد أباح علماؤنا الأُنْسَ بالغناء فى الأفراح وفى الأعياد اعتماداً على قـــول النبى ﷺ لأبى بكر الصديق الذى رأى جاريتين تُغنِّيان فى بيت رسول الله فنهـــرهما ، وقال : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله . فقال : دَعْهما فإننا فى يوم عيد .

وكذلك أباحوا الأناشيدَ التى تُقال لتلهبَ حماسَ الجنود فى الحروب ، أو التى ينشدها العمالُ ليطربوا أنفسهم وينشغلوا بها عن متاعب العمل أو المرأة التى تهدهد ولدها لينام .

ومـــن ذلـــك حداء الإبل (أى : تسوق الإبل والغناء لها) لتسرعَ فى سيرهاوقد قال النبى ﷺ لأنجشة : ((رفقاً بالقوارير)) فشبَّه النساء فى لُطفهن ورقـــتهنَّ بالقوارير ، فإذا ما أسرعتْ بهنَّ الإبل هزّت بهنَّ الهوادج ، وهذا يشقّ على النساء .

إذن : لا مانعَ من كل نَصٍّ له غرضٌ نبيلٌ ، أما إنْ أهاج الغرائزَ فهو حـــرام ـــ والكـــلام هنا عن مجرد النص ـــ لأن الخالقَ سبحانه يعلم طبيعةَ الغرائـــز فى البشر ، لذلك نُسمّيها غريزة ، لأن لها عملاً وتفاعلاً فى نفسك بـــدون أىّ مؤثرات خارجية ، ولها طاقة لا بدَّ أنْ تتحرك ، فإنْ أثرتها أنت ثارت ونزعتْ إلى ما لا تُحمد عُقْباه .

إذن : لا تقُـــلْ الغـــناء لكن قُل النصَّ نفسه ، إنْ حَثَّ على فضيلة فهو حـــلالٌ ، وإنْ أهاجَ الغرائزَ فهو حرامٌ وباطلٌ ، كالذى يُشبِّب بالمرأة ويذكر

مفاتـــنها ، فهـــذا حـــرامٌ حتى فى غير الغناء ، فإذا ما أُضيفَ إليه الموسيقى والألحان والتكسُّر والميوعة ازدادت حُرمته وتضاعف إثمه .

أمـــا ما نراه الآن وما نسمعه يُسمونه غناء ، وما يصاحبه من حركات ورقصات وخلاعات وموسيقى صاخبة فلا شكَّ فى حرمته .

فكـــلُّ ما يُخرج الإنسانَ عن وقاره ورزانته ، وكلُّ ما يجرح المشاعر المُهذَّبة فهو حرام ، ثم إن الغناءَ صوتٌ فإنْ خرج عن الصوت إلى أداء آخر مُهيج تستعمل فيه الأيدى والأرجل والعينان والوسط .. الخ ، فهذا كله باطلٌ ومُحرَّم .

ولا ينبغـــى للمـــؤمن الذى يملك زمامَ نفسه أنْ يقولَ : إنهم يفرضون علينا ذلك ، فالمؤمنُ له بصيرةٌ يهتدى بها ، ويُميِّز بين الغَثِّ والسمين والحق والـــباطل ، فكُنْ أنت حَكَماً على ما ترى وما تسمع ، بل ما يرى وما يسمع أهلُـــك وأولادك ، وبـــيدك أنـــت الزمامُ إنْ شئتَ سمعت ، وإنْ شئتَ أغلقتَ الجهاز ، فلا حُجةَ لك لأن أحداً لا يستطيع أنْ يُجبرك على سماع أو رؤية ما تكره .

ففى رمضان مثلاً ، وهو شهر للعبادة نصوم يومه ونقوم ليله ، وينبغى أنْ نُكرمه ، ونحتفظ فيه بالوقار والرُّوحانية ، ومع ذلك يخرجون علينا بألوان اللهو واللغو الذى يتنافى والصيام .

فـــإنْ ســـألتَهم قالـــوا : الناسُ مختلفو الأمزجة ، وواجبنا أن نوفر لهم أمـــزجتهم ، لكن للمؤمن ولايةٌ على نفسه وهو يملك زمامها ، فلا داعىَ أن تتهم أحداً ما دام الأمرُ فى يدك ، وعليك ألاَّ تنفذ الولايةَ التى ولاَّك اللهُ ، فإنْ

فعلـتَ ففى يدك خمسةٌ وتسعون بالمائة من حركة الحياة ، ولغيرك الخمسةُ الباقية .

إذن : القـضيةُ واضـحة لا تحتاج منا إلى فلسفة حول حكم الغناء أو الموسـيقى ، فكلُّ ما يثير الغرائزَ ويُخرجك عن سَمْت الاعتدال والوقار فهو باطـلٌ وحـرامٌ ، سـواء أكان نصاً بلا لحن ، أو لحناً بدون أداء ، أو أداءً مصحوباً بما لا دخلَ له بالغناء .

هـؤلاء المُعرضون عن اللغو والكلام الباطل جعلهم الحقُّ سبحانه من الوارثين الذين يرثون الفردوسَ الذين قال الحق سبحانه فيهم : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ [المؤمنون]

فحـين يدخل أهلُ الجنة الجنةَ يتركون أماكنهم فى النار ، وحين يدخل أهلُ النار النارَ يتركون أماكنهم فى الجنة ، فيرث أهلُ النار الأماكنَ الشاغرة فيها ، ويرث أهلُ الجنة الأماكنَ الشاغرةَ فيها .

والفـردوسُ أعلـى مكان فى الجنة ، لذلك كان النبى ﷺ يقول : ((إذا سـألتم اللهَ فاسـألوه الفـردوسَ ، فإنه أعلى الجنة وأوسطُ الجنة)) ذلك لأن الفـردوسَ جـنةٌ على أعلى ربوة فى الجنة . يعنى : فى مكان مُميّز منها ، والعلـو فـى مسألة المسكن والجنان أمرٌ محبوبٌ فى الدنيا ، والناس يُحبون السكنى فى الأماكن العالية ، حيث نقاء الهواء ونقاء الماء .

وفـى الفردوس ميزةٌ أخرى ، هى أن الحق سبحانه وتعالى هو الذى غـرس شجرها بيده ، كما كرَّم آدم عليه السلام فخلقه بيده تبارك وتعالى ،

فقال : ﴿ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص]

ويُـرْوى أن الحقَّ تبارك وتعالى لمَّا خلق الفردوسَ وغرس أشجارها بيده قال للفردوس : تكلمى . فلما تكلمتْ الفردوسُ قالت : قد أفلح المؤمنون .

وقـد وصـف الحق سبحانه الفردوس وصفاً يؤكد محبوبية الله ووده لعـباده ، فقـال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الكهف]

والنُّـزُل : ما يُعدّه الإنسانُ لإكرام ضيفه من الإقامة ومُقوّمات الحياة وترفها ، والإنسانُ حينما يُعدُّ النُّزُلَ لضيفه يُعدّه على حَسْب قدراته وإمكاناته وعلمه بالأشياء ، فما بالك إنْ كان المُعد للنُّزُل هو الله تبارك وتعالى ؟

﴿ نُزُلاً مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت] ، فالذى أعدَّ هذا النُّزُل ، وهذه الـضيافة هـو الغفور الرحيم ، والذى يُعد نُزلاً لضيفه يُعده على قدر غناه وبسطة كرمه ، فما بالك بنُزُل أعدَّهُ اللهُ لأحبابه وأوليائه ؟

وقـد جعـل الحـقُ سبحانه من نعيم هذا الفردوس أن عبادَ الله الذين أعرضوا عن اللغو فى الدنيا ﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الواقعة]

فمـن معايب الدنيا ومصائبها أن نسمعَ فيها لغواً كثيراً لا فائدةَ منه ، فهم لا يسمعون فى جنة الفردوس لَغْواً ولا تأثيماً إلا كلمة سلاماً سلاماً ، فهم يُـسلِّمون علـى بعضهم ، والملائكةُ تُسلِّم عليهم ، وأشرف السلام فى قوله

تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس]

فهـذا السلام ليس من البشر ، لأن من **البشر مَنْ** يعطيك السلام وهو يُكـنّ لـك غير السلام ، وقد يريد بك السلام ولكنه من الأغيار فيتغير ، فلا يقدر أنْ يعطيك هذا السلام .

لكـن إذا مـا جـاء السلامُ من الله تعالى فهو سلامٌ من ربٍّ لا يعجزه شيء، ولا يُعوزه شيء ولا تلحقه أغيار ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد]

والملائكـة حـين يقولون **ذلك إنما** أخذوا سلامهم من باطن سلام الله تعالـى ، وحتى أصحاب **الأعراف الذين** لم يدخلوا الجنةَ ويرونَ أهلَ الجنة وأهلَ النار ، هؤلاء يُلقون السلامَ على **أهل** الجنة ، وهكذا يحيا أهلُ الجنة فى سـلام شامل ومحيط ومُطمئن ، لأن الداعىَ هو اللهُ سبحانه ، ولا أحدَ يُجبره على أن ينقض سلامه ، فعباد الله يُلقون فى الجنة سلاماً من الله ، وسلاماً من الملائكة ، وسلاماً من أهل الأعراف .

والحق سبحانه يقول عن خمر الآخرة التى لا تُذهب العقلَ ، ولا تجعل صاحبها يهذى بلغو الكلام : ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الطور]

واللغـو هـو العمل الساقط الذى لا فائدةَ فيه ، مثلما يقول أهلُ الخمر بعضهم لبعض : يا نصاب ، يا نجس ، يا حرامى .. الخ . (فهزارهم) كله

إثــمٌ ولَغْــوٌ ، فالجــنةُ ليس فى شرابها لغوٌ ولا إثمٌ ، فالجنة مبرأة عنهما ، وشرابها لا يُذهب بالعقول .

وذلك مصداقٌ لقول الحق سبحانه : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [مــريم] ، فهُمْ إنْ كانوا قد سمعوا لغواً كثيراً فى الدنيا فلا مجالَ للغو فى الآخرة ، ثم يستثنى من عدم السماع ﴿ إِلَّا سَلَٰمًا ۖ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [مريم]

والــسلام ليس من اللغو ، وهو تحية أهل الجنة وتحية الملائكة ، قال الحق سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ..﴿١٠﴾ ﴾ [يونس]

فالــذى يجعــل للحــياة الدنيا معنى ، ويجعل لها طَعماً ، ويجعل لها استقراراً أن يكونَ الإنسانُ فى سلام ، ومعنى السلام : الاطمئنان والرضا ، فــلا مُهــيِّجات ، ولا مُعكِّرات ، ولا يأتى ذلك إلا بعدم اصطدام فى مَلكات النفس ، فيتحقق سلامُ الإنسان مع نفسه ، وسلامُ الإنسان مع أهله ، وهذا هو المحيط الثانى ، وسلام الإنسان مع قومه ، وسلام الإنسان مع العالم كله .

كــلُّ ذلك اسمه سلام ، أى : لا مُنغِّصَ ، لا من نفسه ، ولا من أهله ، ولا مــن قــومه ، ولا مــن العالم ، وكلما اتسعتْ رقعةُ السلام زاد إحساسُ الإنسان بالاطمئنان .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ..﴿١٠﴾ ﴾ [يونس] ، فالسلام وارد في أشياء متعددة ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس]

وهـذا هو السلام الذى له معنى ، فهو سلامٌ من الله . ولم يقُلْ سبحانه وتعالى : ((سلامٌ يُورثك اطمئناناً ونفساً راضية)) فقط ، بل هو سلامٌ بالقول من الله ، وانظر أىَّ سعادة حين يخاطبك الحقُ سبحانه وتعالى مباشرة .

وهـناك فَـرْق بـين أنْ يُشيعَ اللهُ فيك السلامَ وبين أنْ يحييك كلامه بالسلام، وهذا هو السبب فى قوله : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾[يس]

إذن : فقـول الحق : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ ﴿١٠﴾ ﴾ [يـونس] نجد فيه كلمـة السلام رمزَ الرضا والاستقرار فى الجنة ، فالسلامُ هو أولُ الأحاسيس التـى تُحـبها فى نفسك ، ولو كان الناسُ كلهم ضدك ، لكنك ساعة تستقر ، فأنت تُسائل نفسك : ماذا فعلت ليكون البعضُ ضدى ؟

وحـين تجيب نفسك : إننى لم أفعل إلا الخير . فأنت تُحسّ السلام فى نفسك ، وإذا ما رحَّب الآخرون بما تفعل ، فالحياة تسير ، بلا ضد ولا حقد .

وقد يُراد بالسلام السلامةَ من الآفات التى عاينوها فى الدنيا ، وهم فى الآخرة سالمون منها ، فلا عاهةَ ولا مرض ولا كدّ ولا نَصَب ، ولكن نرجح هـنا فى قوله تعالى : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ ﴿٦٢﴾ ﴾ [مريم] المعنى الأول أى : التحية ، لأن السلام فى الآية مما يُسمع .

فـإن قلتَ : فكيف يُستثنى السلامُ من اللغو ؟ نقول : من أساليب اللغة تأكـيدُ المـدح بما يشبه الذمَّ ، كأنْ نقول : لا عيبَ فى فلان إلا أنه شجاعٌ ، وكـنت تنتظـر أن نـستثنى من العيب عيباً ، لكن المعنى هنا : إن عددتَ

الشجاعة عَيباً ، ففى هذا الشخص عيبٌ ، فقد نظرنا فى هذا الشخص فلم نجد به عيباً ، إلا إذا ارتكبنا مُحالاً وعددنا الشجاعةَ عيباً ، وهكذا نؤكد مدحه بما يشبه الذم .

مما ذكره الفاكهي في كتابه (أخبار مكة) عن فضل مَنْ أعرض عن اللغو وتفاهات الأمور :

عن وهب بن منبه قال : بلغ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن مجلس كان في المسجد في ناحية بني سهم يجلس فيه ناس من قريش يختصمون فترتفع أصواتهم .

فقال لي ابن عباس رضي الله عنهما : انطلق بنا إليهم .

قال : فانطلقنا حتى وقفنا عليهم .

فقال ابن عباس رضي الله عنهما : أخبرهم عن الكلام الذي كلم به الفتى أيوب وهو في بلائه .

قال : قلتُ له : قال الفتى :

يا أيوب ، أما كان في عظمة الله وذكر الموت ما يكل لسانك ، ويقطع قلبك ويكسر حجتك

يا أيوب ، أما علمت أن لله عبادا أسكتتهم خشية الله من غير عي ولا بَكم ، وإنهم لهم النبلاء الطلقاء الفصحاء الألباء العالمون بالله وأيامه ، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله تعالى تقطعت قلوبهم ، وكلَّتْ ألسنتهم ، وطاشتْ عقولهم وأحلامهم ؛ فَرَقاً من الله عز وجل وهيبةً له ، فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا

إلـــى الله عز وجل بالأعمال الزاكية ، لا يستكثرون لله الكثير ، ولا يرضون له بالقليل ، يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين وإنهم لأنزاه أبرار ، ومع المضيعين والمفرطين وإنهم لأكياس أقوياء ، ناحلون ذائبون ، يراهم الجاهل فـيقول : مرضـــى ، وليـــسوا بمرضى، وقد خولطوا ، وقد خالط القوم أمر عظيم.

قـــال أبو الحكم : وكتب إلي رجل أن ابن عباس رضي الله عنهما قال لهـــم علـــى إثر هذا الكلام : كفى بك ظالماً أن لا تزال مخاصماً ، وكفى بك إثمـــاً أن لا تـــزال مماريا ، وكفى بك إثماً أن لا تزال مُحدِّثاً بغير ذكر الله تعالى .